



الخوارج : أولهم الصحابي حرقوص ، وآخرهم السلفية الوهابية والدواعش (4 - 10)

بقلم: رائف محمد الويشي

20 أكتوبر 2014

في الحلقة الأولى من هذه الدراسة ناقشنا الخوارج من حيث المعني ، كما ناقشنا أيضا تمركز دولهم علي مر التاريخ منذ اندحارهم في معركة النهروان في 9 صفر 38 هـ (يوليو 658 م) ..

في الحلقة الثانية ناقشنا تواجد الخوارج في الحديث النبوي ، وهو ما يعني أنهم كانوا متواجدين في حياة النبي (ص) ، ولاحظنا التحذيرات النبوية بشأنهم ..

في الحلقة الثالثة ناقشنا الفتنة التي وقعت في أعقاب مقتل الخليفة الثالث عثمان ثم فتنة معركة الجمل التي تلتها بشهور قليلة ، السبب في ذلك هو أن هاتين الفتنتين تمثلان المرحلة التمهيدية التي ظهر في نهايتها الخوارج ..

في الحلقة الرابعة اليوم سنتحدث عن بداية الظهور الجماعي للخوارج في أعقاب معركة الجمل ، وسنري محاولات الإمام علي (ع) معهم لحقن دماء المسلمين بالحوار معهم بأكثر مما فعل مع ثلاثي الجمل ..

لا نبالغ إذا قلنا أن الخوارج ظهروا كقوة جماعية مؤثرة بعد ساعات من توقف حرب الجمل التي انتهت بالانتصار الساحق للإمام علي (ع) وهزيمة منكرة لثلاثي الجمل ..

نشأ الخوارج بالبادية ، حيث يسيطر الجهل والماديات وقسوة القلوب علي العقول ، لم يتمكنوا من فهم حجة الإمام علي (ع) في تحريم أموال وذراري المهزومين في الجمل علي أفراد جيشه ، فحاججوه كيف تحل لنا دماءهم وتحرم علينا ذراريهم وأموالهم؟!

يقول ابن الأعمش الكوفي - توفي في عام 314 هـ - في الفتوح (ج 4 ص 122 / 123) ، وابن كثير - توفي في عام 774 هـ - في البداية والنهاية (ج 7 ص 282) ، عن الفرق بين الفرق (ص 78) ما يلي :
" فأتاهم علي في جيشه ، وبرزوا إليه بجمعهم ، فقال لهم قبل القتال : ماذا نقتم مني؟! فقالوا : أول ما نقتم منك: أنا قاتلنا بين يديك يوم الجمل ، فلما انهزم أصحاب الجمل أبحث لنا ما وجدنا في عسكرهم ، ومنعتنا من سبي نسائهم وذراريهم ، فكيف استحللت مالهم ، دون نسائهم والذرية؟! فقال : إنما أبحث لكم أموالهم بدلاً عما كانوا أغاروا عليه من بيت مال البصرة ، قبل قدومي عليهم ، والنساء والذرية لم يقاتلونا ، وكان لهم حكم الإسلام بحكم دار الإسلام ، ولم يكن منهم ردة عن الإسلام ، ولا يجوز استرقاق من لم يكفر ، وبعد.. لو أبحث لكم النساء ، أيكم يأخذ عائشة في سهمه؟ فخجل القوم من هذا ... " ..

(ثلاث ملاحظات : الملاحظة الأولى : ولد ابن الأعمش الكوفي في عام 250 هـ ، كان محدثاً وشاعراً ومؤرخاً ، اختلف الناس في مذهبه بين التشيع والشافعية ، يحتوي كتاب الفتوح علي خطب للإمام علي (ع) ..

الملاحظة الثانية : الإمام علي (ع) كان يُلزم جيشه في كل حروبه الثلاث مع الناكثين والقاسطين والمارقين (الجمل - صفين - النهروان) بالتعاليم النبوية التي تعلمها من صاحب الرسالة (ص) فلا يُجهز في أرض المعركة علي جريح ولا يُلاحق مدبر ، وشتان بين تلك القيم الربانية وما فعله الأمويون والوهابيون والدواعش في حروبهم مع المسلمين من تمثيل للجثث وسبي النساء ، ونرصد ذلك من خلال نصوص يوم الجمل التالية :
1- ذكر الحاكم في المستدرک (ج 3 ص 371) عن يحيى بن سعيد أنه قال : لما كان يوم الجمل نادي علي (ع) في الناس : لا يرمين رجل بسهم ، ولا يطعن برمح ، ولا يضرب بسيف ، ولا تبدؤوا القوم بالقتال ، وكلموهم بألفاظ الكلام ، فإن هذا مقام من أفلح فيه فلح يوم القيامة ، قال : فلم نزل وقوفا حتى تعالی النهار ، ونادي القوم بأجمعهم " : يا لثارات عثمان " ، قال وابن الحنفية أماننا بربوة معه اللواء : يا أمير المؤمنين ، فناداه علي ، قال : فأقبل علينا

يعرض بوجهه ، فقال له علي : ما يقولون ؟ فقال : يقولون " يا لثارات عثمان " فرفع يديه فقال : اللهم أكب اليوم قتلة عثمان بوجوههم ..

2- ذكر اليعقوبي في تاريخه (ج 2 ص 180) ، وابن الأعمش الكوفي في تاريخه (ص 175) ، وأبو الفرج الأصفهاني في الأغاني (ج 16 ص 127) ، وابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة (ج 2 ص 430) بالفاظ متشابهة عن يوم الجمل ما يلي : " لما تزاحف الناس يوم الجمل والتقوا قال علي : لا تقاتلوا القوم حتى يبدؤوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة ، وكفاكم عنهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى ، وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزتموهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلتكم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً " ..

3- قال المسعودي في مروج الذهب (هامش أسد الغابة لابن الأثير ج 5 ص 188) أن الإمام علي قال لجيشه يوم الجمل ما يلي : " ولا تقربوا من أموالهم إلا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو لورثتهم على كتاب الله ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمت أعراسكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها عقبه من بعده " ..

الملاحظة الثالثة : أحل الإمام علي (ع) لجيشه في حرب الجمل ما يحمله المتحاربون من سلاح وأموال لرد ما اغتصبوه من بيت المال ، لكنه حرّم عليهم أموالهم خارج أرض المعركة لأنها ملك لورثتهم ، فيالها من عدالة ورثتها من النبي (ص) حتى مع أعدائه !) ..

إن ندرك من الفقرة الماضية أن الإمام علي (ع) قد حارب في صفين في 1 صفر عام 37 هـ (بعد أقل من عام من حرب الجمل) بينما كان الخوارج قد ظهروا بمطامعهم علي أرض الواقع في البصرة يوم الجمل ، فلا غرابة إذن أن يقول بعض الباحثين أنهم كانوا في الأصل يشكلون طابورا خامسا مواليا لمعاوية في صفوف جيش الإمام علي (ع) ..

يقول ابن أبي حديد – توفي في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 1 ص 185) ما يلي :

" كان بعض العثمانيين - وهم جند علي - يتجسسون الأخبار لمعاوية ، وكان أبو بردة ابن عوف الأزدي يكتتب معاوية من الكوفة ، فلما ظهر معاوية أقطع قطيعة بالفلوجة ، وكان كريماً عليه " ..

ومن المعروف أن البصرة لم تكن موالية للإمام علي (ع) في حرب الجمل ولم يخرج من رجالها سوي 1500 من المقاتلين رغم قدرة المدينة علي تجنيد ستين ألفا في هذا الزمان ..

يقول ابن عبد ربه – توفي في عام 328 هـ - في العقد الفريد (ج 6 ص 248) عن الأصمعي ما يلي :

" البصرة عثمانية من يوم الجمل "

يقول المستشرق الألماني يوليوس فلهوزن – توفي في عام 1918 م - في تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلي نهاية الدولة الأموية (ص 94) ما يلي :

" إن الخوارج في العراق يحاربونه حرباً شديدة ، وكان أهل البصرة مترخين متناقلين عن نصرته إذا استثنينا أشخاصاً قلانل مثل أبي الأسود الدؤلي .. وكان أهل الكوفة معه بأهوائهم ، ولكنهم لم يكونوا معه بكل قواهم. وكان بينهم بعض المحاربين وبعض المائلين إلى عثمان ، ولحق بعضهم بمعاوية " ..

يقول ابن هلال الثقفي – توفي في 283 هـ - في الغارات (ج 2 ص 454) عن موقف العراقيين من الإمام علي (ع) ما يلي :

" قد كان الناس كرهوا علياً ، ودخلهم الشك والفتنة ، وركنوا إلى الدنيا ، وقلّ مناصحوه ، فكان أهل البصرة على خلافه والبغض له ، وجلّ أهل الكوفة وقرأؤهم ، وأهل الشام ، وقريش كلها " ..

يقول ابن كثير – توفي في عام 774 هـ - في البداية والنهاية (ج 7 ص 317) عن موقف أهل العراق من الإمام علي ما يلي :

" واستقر أمر العراقيين على مخالفة علي فيما يأمرهم ، وبينهاهم عنه ، والخروج عليه ، والبعد عن أحكامه ، وأقواله ، وأفعاله ، لجهلهم ، وقلة عقولهم ، وجفائهم ، وغلظتهم ، وفجور كثير منهم " ..

(ثلاث ملاحظات : الملاحظة الأولى : ولد ابن هلال الثقفي في الكوفة في بداية القرن الثالث الهجري ، زادت مؤلفاته عن خمسين ، منها : المغازي – السقيفة – الردة – مقتل عثمان – الشورى – الجمل – صفين – الحكمان – مقتل علي – كتاب التاريخ – السيرة – أخبار يزيد – ابن الزبير – أخبار عثمان - أخبار عمر - الغارات ، وقد ذكر في كتاب الغارات ما فعله معاوية في غاراته من جرائم علي الموالين للإمام علي ، كما كتب ابن هلال أيضاً كتاباً أسماه المعرفة في المناقب والمثالب ، والكتاب المذكور يحتوي في قسمه الأول علي مناقب أهل البيت ، وفي قسمه الثاني يحتوي علي مثالب أعدائهم ، وقد فقد

الكتاب المذكور وقتل ابن هلال في أصفهان بسبب موالاته للإمام علي (ع) وإصراره علي قول الحق ..

الملاحظة الثانية : عاني الإمام علي (ع) أشد المعاناة من انفضاض الناس عن السنة العجدية حيث ركنا إلى السنة البكرية والعمرية ، فهو علي سبيل المثال لم يتمكن من إقناعهم بأن صلاة التروايح لا شأن لها بالسنة بل من إرث الخليفة الثاني عمر ، وقد اتهمت أم المؤمنين أم سلمة صراحة عمر بن الخطاب في صحيح مسلم ج 2 ص 1108 بسبب تدخلاته الغير لائقة في الشأن النبوي قائلة : " عجا لك يا بن الخطاب قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه " ..

أما في العراق حيث البعد الجغرافي من المركز الرئيسي من عاصمة الإسلام فمن الطبيعي أن تكون معاناة الإمام علي (ع) أعمق وأشد ، وفي هذا عدة أسباب نضعها فيما يلي:

- 1- صنعت الطبيعة الجغرافية البدوية من أهل العراق الجهل في قلوبهم والجفاء وبعدهم عن الحق وميلهم للمغانم علي حساب العدالة ..
- 2- قاد رجال القبائل بالعراق الحملة علي الإمام علي (ع) لأنه كان يعاملهم دون تمييز ، مثلهم مثل بقية المسلمين ، علي عكس معاملة عثمان ومعاوية لهم ، فقد كانا يضعان رجال القبائل بمنزلة رفيعة ويقدمان لهم الهدايا (الرشاي) ، وقد رفض الإمام علي مناقشة قائده العسكري مالك بن الأشتر بمعاملة رجال القبائل معاملة خاصة ..
- 3- تواجد أم المؤمنين عائشة علي رأس الجيش المناهض للإمام علي (ع) ووصولها إلي البصرة قبل وصوله إليها أوجدا حالة من التناصر لها بين أهالي البصرة ساعدت رجال القبائل علي الطلب من عشائهم بتقديم العون لثلاثي الجمل..
- 4- كان أهل العراق علي علم بأن رحمة الإمام علي (ع) تسبق غضبه ، وكانوا يعلمون أيضا أن غضب معاوية وهتكه للأعراض سيقع بهم (راجع جرائم قائده العسكري بسر بن إرطاة بحق نساء وأطفال المسلمين وكذلك وصيته وهو في فراش موته لابنه يزيد بارتكاب جرائم بحق أهل المدينة) وقد فعلها يزيد - بعد قتله الحسين - وقتل عشرة آلاف مسلم في المدينة واغتصب جميع نساها في واقعة الحرة المشينة في عام 64 هـ ..

الملاحظة الثالثة : رغم كل تلك العوائق التي ذكرناها تمكن جيش الإمام علي من إنزال الهزيمة الساحقة بجيش الجمل ، وكاد أن ينتصر علي جيش معاوية في صفين لولا هؤلاء الخوارج (الطابور الخامس لمعاوية) الذين أجبروه علي وقف المعارك رغم مناقشته لهم بأنها حيلة من معاوية ، فلما أوقفها ولجأ إلي التحكيم قرروا تكفيره واشتروا لعودتهم إقراره بكفره ..

من الطبيعي إذن أن نري الإمام علي (ع) يتألم في أقواله طوال الفترة التي تلت وفاة رسول الله وحتى وفاته بسبب ما فعله القرشيون به وبرسالة الإسلام من تضييع وتحريف ..

ذكر ابن أبي حديد - توفي في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 8 ص 77) خطابا للإمام علي (ع) أرسله إلي أخيه عقيل بن أبي طالب يشكو له من ظلم قريش له ، فيقول ما يلي :
" ألا وإن العرب قد أجمعت علي حرب أخيك إجماعها علي حرب رسول الله قبل اليوم ، فأصبحوا قد جهلوا حقه ، وجددوا فضله ، وبادروه بالعداوة ، ونصبوا له الحرب ، وجهدوا عليه كل الجهد ، وجرؤوا إليه جيش الأحزاب " ..

كان عثمان بن عفان الأموي صريحا - دون مراوغة أو نفاق - مع الإمام علي (ع) في ذكر الأسباب التي قلبت قريش علي وصي رسول الله (ص) في رسالته ..

ذكر أبو نعيم الأصفهاني - توفي في عام 430 هـ - في معرفة الصحابة (ج 1 ص 497) ، وابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة (ج 3 ص 202) أن الخليفة الثالث عثمان قال للإمام علي (ع) ما يلي :
" ما ذنبي إذا لم يحبك قريش ، وقد قتلت منهم سبعين رجلاً ، كأن وجوههم سيوف الذهب " ..

دارت المعارك الطاحنة في صفين في المحرم من عام 37 هـ بين جيش الإمام علي (ع) وبجانبه كل الصحابة وبين معاوية وبجانبه أصحاب الجرائم وأولاد السفاح والباحثين عن الغنائم من أموال وسبايا ..

التقى الطرفان المتحاربان في سهل " صفين " بالقرب من الفرات وشرق سوريا وعلى بعد 500 كم من دمشق - في ذي الحجة سنة 36 هـ (يونيه 657 م) حيث دارت بينهما معارك محدودة ، فكانت الكتيبة ضد الكتيبة ، ثم توسعت حتى 27 محرم من عام 37 هـ ، ثم توقفت في هدنة لثلاثة أيام طمعا في الصلح ، ثم استؤنفت في 1 صفر (18 يوليو 657 م) حتى 13 منه من عام 37 هـ وأصبحت قتالا عاما بين الجيشين ..

قال اليعقوبي - توفي في 284 هـ - في تاريخه (2 / 188) ، وابن خياط - توفي في 240 هـ - في تاريخه (ص 148) ،

والمسعودي - توفي في 346 هـ - في مروج الذهب (2 / 361) ، والحاكم - توفي في 405 هـ - في المستدرک (3 / 112) ، وابن عساكر - توفي في 571 هـ - في تاريخ دمشق (19 / 442) ، والذهبي - توفي في 748 هـ - في تاريخ الإسلام (3 / 545) أن ممن شارك في جيش الإمام علي كان 800 ممن شهد بيعة الرضوان (4000 من الصحابة) ومنهم 80 من البدریین (اختلافت الأرقام عند البعض بين السبعين والتسعين) ، كان على رأسهم عمار ابن ياسر وكان يبلغ إثنين وتسعين عاماً ، وكعب بن عمرو الأنصاري السلمي وكان يبلغ تسعين عاماً ، وحزيمة بن ثابت (صاحب الشهاداتین) ..

قال نصر بن مزاحم الكوفي - توفي في عام 212 هـ - في كتابه صفین (ص 449) أن قيس بن سعد بن عبادة (أحد قادة الإمام علي) قد قابل النعمان بن بشير في أرض المعركة فقال له ما يلي :
" أنظر يا نعمان ! هل ترى مع معاوية إلا طليقا أو أعرابيا أو يمانيا مستدرجا بغرور ، أنظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون الذين رضي الله عنهم ، ثم انظر هل ترى مع معاوية غيرك وصوبحك ، ولستما والله ببدریین ، ولا عقبيين ، ولا أحديين ، ولا لكما سابقة في الإسلام ، ولا آية في القرآن ، ولعمري لئن شغبت علينا لقد شغب علينا أبوك " ..

(ملاحظة : قيس ابن سعد ابن عبادة كان أبوه - سعد بن عبادة - زعيما للأنصار وقد رفض بيعة السقيفة وخرج إلي الشام محتجا وقتله عمر بن الخطاب هناك بعد أن تولي الخلافة ، أما ابنه قيس فهو البطل المغوار والقائد العسكري الكبير لجيش الإمام علي ، وقد تولى مصر في خلافة الإمام علي ..
النعمان بن بشير كان من قادة معاوية العسكريين ضد أهل بيت رسول الله ، وكذلك أبوه البشير بن سعد وقف بجانب أبي بكر وعمر يوم السقيفة ، إذن فهي ذرية بعضها من بعض في الحالين) ..

اختلفت التقديرات في أعداد الجيشين من الطرفين ، فابن كثير في البداية والنهاية قدر جيش الإمام بـ 120 ألف مقاتل (منهم 100 مقاتل من البدریین ضمنهم عمار بن ياسر وحزيمة بن ثابت وسعد بن قيس) وجيش معاوية بـ 80 ألف مقاتل ، بينما قدر آخرون جيش الإمام علي بـ 90 ألف مقاتل وجيش معاوية بـ 85 ألف مقاتل ..

كما اختلفت التقديرات أيضا في أعداد القتلى من الطرفين ، ففي البداية والنهاية يقدر ابن كثير القتلى من طرف جيش علي بأربعين ألفاً ومن طرف معاوية بعشرين ألفاً ، بينما المسعودي في مروج الذهب يخالفه الرأي ويقول : " قتل بصفين سبعون ألفاً ، ومن أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً " ، وقول المسعودي يرجحه الجمهور ..

(ملاحظتان : الملاحظة الأولى : يدعى شيخ الإسلام الأموي ابن تيمية أن اثنين فقط من الصحابة هما عمار وحزيمة بن ثابت قد قاتلا مع الإمام علي في صفين ، ولا عجب من ذلك فهو يقول في منهاج السنة (ج 2 ص 230) عن الإمام علي ما يلي : " وعلي يقاتل لبطاح ، ويتصرف في النفوس والأموال ، فكيف يجعل هذا قتالاً على الدين " .. ومن يقرأ سيرة معاوية وسيرة الإمام علي يعرف افتراءات ابن تيمية ، ونرد عليه بالمصادر المعتمدة التالية :
1- يقول الذهبي في تاريخ الإسلام (ج 2 ص 149) ما يلي : " كان مع علي يوم الجمل ثمانمائة من الأنصار وسبعمائة ممن شهد بيعة الرضوان ومائة وثلاثون بدرياً " ..

2- الحاكم في المستدرک (ج 11 ص 853) يقول أن عدد البدریین في جيش الإمام علي (ع) في صفين كانوا ثمانين ..
3- ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (ج 11 ص 445) يقول أن عدد البدریین في جيش الإمام علي (ع) يوم صفين كانوا سبعين ..
4- المسعودي في مروج الذهب (ج 1 ص 814) يقول ما يلي : " وكان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلاً : منهم سبعة عشر من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وشهد معه من الأنصار ممن بايع تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ تسعمائة ، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفين وثمانمائة ..
5- قال ابن قتيبة الدينوري في الإمامة والساسة (ج 1 ص 49) ما يلي : " أن عدد الصحابة الذين حضروا معه صفين كان ثمان مئة رجل ، وقد جعلهم فرقة خاصة ، وأمر عليهم قيس بن سعد " ..

في حرب الإمام علي (ع) مع الخوارج في النهروان ، فقد ورد أن ابن عباس قال في أحد مناشداته معهم ما يلي :
" أتيتكم من عند المهاجرين والأنصار ، ومن عند صهر رسول الله (ص) علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعليهم نزل القرآن ، وهو اعلم بتأويله منكم " .. راجع تذكرة الخواص لسبط ابن جوزي ص 99 ، والمناقب للخوارزمي الحنفي ص 184

سعيد بن المسيب (أحد أكبر علماء المدينة من الجيل الأول من التابعين) في البخاري (حديث رقم 3800) هو أفضل من يرد على ما زعم ابن تيمية ، وفيه يقول التالي : " وقعت الفتنة الأولى فلم يبق من أصحاب بدر أحد ، ثم وقعت الفتنة الثانية - واقعة الحرة في المدينة - فلم يبق من أصحاب الحديثية أحد ، ثم وقعت الفتنة الثالثة فلم ترتفع وبالناس طباح " .. والمقصود بالفتنة الأولى هنا هي صفين لأن الإمام عليا وعمار وحزيمة بن ثابت وغيرهم الكثير من البدریین لم يُقتلوا في الجمل ..

الملاحظة الثانية : سواء كان عدد البدریین في جيش الإمام أكثر من سبعين أو أقل من ذلك ، فلا بد أن نقدم عدة أسئلة للسلفيين من أنصار ابن تيمية :

* هل هناك أفضل من البدرين في السلف الصالح الذي تدعون السير على خطاه؟!
* هل اشترك مع معاوية بدري واحد؟!
* ألا يبين عدد البدرين خصوصاً والصحابة عموماً المشتركين في جيش الإمام علي (ع) في صفين والجمل والنهروان خطأ الطريق الذي تسببوا فيه؟! *
ألم يثبت بدليل النص النبوي المتواتر المذكور في البخاري ومسلم وغيرهما أن قتلة عمار هم الفئة الباغية؟! ..

سقط 25 من البدرين في تلك الحرب ، كان على رأسهم عمار بن ياسر وكان عمره قد تجاوز التسعين عاماً حينها ، وهو الذي قال فيه رسول الله (ص) عن جابر بن عبد الله أنه قال " ويح عمار ، تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " ، وقد فارق الحياة في أرض القتال وسمعه حينها رفاقه وهو يقول : اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه ، وذلك في مساء يوم الخميس 9 صفر عام 37 هـ ، وله من العمر 93 عاماً ..

ذكر أحمد في مسنده (ج 4 ص 89) عن خالد ابن الوليد عن النبي (ص) أنه قال ما يلي :
" من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً أبغضه الله " ..

ذكر الحاكم – توفي في عام 405 هـ - في المستدرک (ج 3 ص 390) بسند صححه هو والذهبي أن النبي (ص) قال ما يلي :
" من يسب عماراً يسبه الله ، ومن يبغض عماراً يبغضه الله ، ومن يسفه عماراً يسفه الله " ..

قال ابن سعد – توفي في عام 230 هـ - في الطبقات الكبرى (ج 3 ص 260) ، وأحمد في مسنده (مسند الشاميين حديث رقم 17000) والبلاذري – توفي في عام 297 هـ - في أنساب الأشراف (ص 314) عن أبي الغادية الجهني أنه قال ما يلي :
" قتل عمار بن ياسر فأخبر عمرو بن العاص ، قال : سمعت رسول الله يقول : إن قاتله وسالبه في النار ، فليل لعمره : فإنك هو ذا تقتله ، قال : إنما قال : قاتله وسالبه " ..

قال البخاري في صحيحه (حديث رقم 436) ، ومسلم في صحيحه (حديث رقم 2916) ، وأحمد في مسنده (حديث رقم 6887) ، والترمذي في سننه (حديث رقم 3800) ، والحاكم في المستدرک (حديث رقم 5710) أن النبي (ص) قال ما يلي :
" ويح عمار ! تقتله الفئة الباغية ، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار " ..

ذكر البخاري في صحيحه (ج 2 ص 114) ومسلم في صحيحه (ج 2 ص 370) ، وابن هشام في سيرته (ج 1 ص 496) ، والطبري في تاريخ الأمم والملوك (ج 4 ص 27) ، وابن الأثير في الكامل في التاريخ (ج 2 ص 87) ، وابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة (ج 8 ص 24) ، عن أبي سنان الدثلي أنه تحدث عما دار في أحد أيام صفين فقال ما يلي :
" رأيت عمار بن ياسر دعا غلاماً له بشراب ، فأتاه بقدر لبن ، فشرب منه ، ثم قال : صدق الله ورسوله ، اليوم ألقى الأحبة ، محمداً وحزبه ، إن رسول الله قال : " إن آخر شيء تزوده من الدنيا شربة لبن " ... ثم قاتل فقتل " ..

قال الموفق الخوارزمي – توفي في 568 هـ - في المناقب (ص 243) أن معاوية قال يوم صفين لمعاونيه ما يلي :
" ما منّا أحد إلا وقد قتل علي أباه ، أو أخاه ، أو ولده ، قتل يوم بدر أباك يا وليد ، وقتل عمك يا أبا الأعور يوم أحد (هو أبو الأعور الأسلمي رئيس قبيلة أسلم التي وقعت بجانب أبي بكر في السقيفة) وقتل يا بن طلحة الطلحات أباك يوم الجمل ، فإذا اجتمعتم عليه أدركتم تارككم منه ، وشفيتم صدوركم " ..

بعد أربعين يوماً من القتال الضاري لاحت تباشير النصر لجيش الإمام ، أوشك جيش معاوية على الهزيمة وأوشك مالك بن الأشتر من الإجهاد بجيشه على معاوية ومن معه من القادة ، وهنا جاءت فكرة الداهية عمرو بن العاص المدمرة ..

أشار عمرو بن العاص (87 عاماً) علي معاوية بخطوة تكتيكية مكررة لبث الفرقة في جيش الإمام عليّ ، اقترح بن العاص قيام جيش معاوية برفع المصاحف على رؤوس السيوف وقال : إنني قد رأيت أمراً لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة ، أرى أن نرفع المصاحف ندعوهم إليها ، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال ، وإن اختلفوا فيما بينهم فمن قاتل : نجيبهم ، وقائل :

لا نجيبهم ..

(أربع ملاحظات : الملاحظة الأولى : كان والد عمرو هو العاص بن وائل ، ويقول فخر الدين الرازي - توفي في عام 606 هـ - في تفسيره (ج 8 ص 503) ما يلي : " روي أن العاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتراً لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره ، واسترحتم منه ، وكان قد مات ابنه عبد الله من خديجة ، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعمامة أهل التفسير ، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول ، فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية - إن شانئك هو الأبتى - نزلت فيه " ..

الملاحظة الثانية : كتب الإمام علي (ع) خطاباً إلى عمر بن العاص يوماً فبدأ فيه بما يلي : " من عبد الله أمير المؤمنين إلى الأبتى ابن الأبتى عمرو بن العاص ، شأنى محمد وآله محمد في الجاهلية والإسلام " .. وقد ناداه عمار بن ياسر وعبد الله بن جعفر بـ " الأبتى " في أرض المعركة في صفين ..

الملاحظة الثالثة : أم عمرو بن العاص هي ليلى أشهر بغي بمكة وأرخصهن أجرة ، ولما وضعته ادعاها خمسة كلهم أتوها ، غير أن ليلى ألحقته بالعاص لكونه أقرب شبيهاً به ، وأكثر نفقة عليها ..

ذكر ابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة (ج 2 ص 101) حديث المهاجرة الطويلة الواقعة بين الإمام الحسن بن علي (ع) وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، في مجلس معاوية بالكوفة في عام المعاهدة 41 هـ ، وفيه قال الإمام الحسن (ع) لعمرو بن العاص ما يلي : " أما أنت يا بن العاص فإن أمرك مشترك ، وضعتك أمك مجهولاً من عهر وسفاح ، فتحاكم فيك أربعة من قريش فغلب عليك جزارها ، الأهم حسباً ، وأخبثهم منصباً ، ثم قام أبوك فقال : أنا شأنى محمد الأبتى فأنزل الله فيه ما أنزل " ..

ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى - توفي في عام 209 هـ - في كتاب الأنساب (ج 11 ص 209) ما يلي : " اختصم في عمرو يوم ولادته رجلان : أبو سفيان ، والعاص ، فقيل : لتحكم أمه فقالت : إنه من العاص بن وائل ، فقال أبو سفيان : أما إنى لا أشك إننى وضعت في رحم أمه فأبت إلا العاص فقيل لها : أبو سفيان أشرف نسباً ، فقالت : إن العاص بن وائل كثير النفقة علي وأبو سفيان شحيح " ..

الملاحظة الرابعة : ذكر المؤرخ وعالم الأنساب الأول عند المسلمين هشام بن محمد الكلبي - توفي في 204 هـ - في مثالب العرب (ج 4 ص 206) ، وسبط ابن الجوزى الحنفى المذهب - توفي في عام 654 هـ - في تذكرة الخواص (ص 114) ، أن عدد الزناة بوالدة عمرو كانوا خمسة وليسوا أربعة ، وقد ذكراهما بالاسم وهم : العاص بن وائل ، وأبو لهب ، وأمىة بن خلف ، وهشام بن المغيرة ، وأبو سفيان بن حرب ..

ذكر سبط ابن الجوزى في نفس المصدر السابق (ص 117) أن أشهر الزناة بمكة في ذلك الوقت كان ما يلي : الخمسة الذين ذكروهم ، بالإضافة إلى أمىة بن عبد شمس ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص (شقيق مروان بن الحكم) ، وعتبة بن أبي سفيان (شقيق معاوية) ، وعقبة بن أبي معيط .. ذكر ابن عساکر - توفي في عام 571 هـ - في تاريخ مدينة دمشق (ج 7 ص 330) أن عمرو بن العاص قال لعبد الله بن جعفر الطيار ذي الجناحين في مجلس معاوية : يا بن جعفر؟ يريد تصغيره ، فقال له : لئن نسبنتى إلى جعفر فلست بدعي ولا أبتى ، ثم ولى وهو يقول : تعرضت قرن الشمس وقت ظهيرة * لتستر منه ضوءه بظلامك كفرت اختياراً ثم أمنت خيفة * وبغضك إيانا شهيد بذلك) ..

في منتصف صفر عام 37 هـ نفذ جيش معاوية حيلة عمرو بن العاص ورفع المصاحف في وجه جيش الإمام علي (ع) منادياً بين الجيشين : الله الله في دماننا ودمائكم المتبقية ، بيننا وبينكم كتاب الله ، فقام المتآمرون في جيش الإمام بزعامة الأشعث بن قيس مع الذين انطوت عليهم الخدعة ، لا سيما ذوي القلوب الضعيفة والذين ملوا القتال ، بمطالبة علي بضرورة وقف الحرب ..

ترأس الأشعث بن قيس حركة المؤيدين لوقف القتال واللجوء إلى التحكيم في جيش الإمام علي ، ونجح في تجنيد 20 ألفاً من المقاتلين مقاتل من قوات الإمام علي لتوازره في ذلك ..

ذكر أبو الفرج ابن الجوزى الحنبلي - توفي في عام 597 هـ - في المنظم تاريخ الأمم والملوك (أحداث سنة 37 هـ) عن انسياق الخوارج وراء خديعة رفع المصاحف ما يلي :

" فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت ، قالوا : نجيب إلى كتاب الله ونثيب إليه ، فقال علي رضي الله عنه : ما رفعوها إلا خديعة ، فقالوا له : ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله ، فقال : إنى إنما أقاتلهم بحكم الكتاب ، فقال له مسعر بن فدكي التميمي ، وزيد بن حصين الطائي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا علي ، أجب إلى كتاب الله إذا دعيت إليه ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم ، أو فعل ما فعلنا بابن عفان إنه أبى علينا أن نعمل بما في كتاب الله فقتلناه ، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك " ..

فشلت كل محاولات الإمام علي (ع) مع المعارضين (الطابور الخامس لمعاوية) بقيادة الأشعث بن قيس لإقناعهم بزيغ خديعة رفع المصاحف ، وكان أمام خيارين :

- 1- إما أن يعارضهم ويستمر في القتال ، وهم في هذه الحالة يحيطون به وحده في غرفة القيادة وقد ينفذوا فيه تهديدهم بقتله ..
2- إما أن يستجيب لهم فيأمر قادته العسكريين بوقف القتال فوراً واللجوء – مجبراً - إلي خديعة التحكيم..

(أربع ملاحظات : الملاحظة الأولى : كان الأشعث صحابياً لكنه ارتد بعد موت النبي (ص) ورغم ذلك عفي عنه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة وندم أبو بكر على ذلك في فراش موته ، وهذا الندم لم يكن لله ولكن لأن الأشعث تحالف مع عمر ضده ومات أبو بكر مسموماً في مؤامرة كبرى .. تزوج الإمام الحسين ابنة الأشعث جعدة ، وهي من قامت بسمه بتدبير من معاوية ليخلو لابنه يزيد الخلافة ، أما ابنه محمد بن الأشعث فقد قاتل أهل بيت رسول الله في العراق وقتل مسلم بن عقيل مبعوث الإمام الحسين (ع) وقام بالتمثيل بجثته رغم إعطائه الأمان له ..

الملاحظة الثانية : كان الأشعث في زمن عثمان واليا على أذربيجان وحصل منه على أراضى واسعة في العراق وأذربيجان ، وكان من كبار الإقطاعيين ، وفي زمن معاوية كان من رجاله في الكوفة لكنه انخرط في جيش الإمام كطابور خامس في صورة قائد كبير ..

الملاحظة الثالثة : يقول ابن قتيبة في الإمامة والسياسة (ج 1 ص 92) أن الأشعث كان يعلم أن الإمام علي (ع) سيحاسبه – في حال انتصاره – على الأموال والممتلكات التي نهبا أثناء توليه من قبل الخليفة الثالث علي أذربيجان ، فعمل على هزيمة الإمام علي من الداخل ..

الملاحظة الرابعة : نجح الأشعث في استقطاب عدد كبير من جنود الإمام علي (ع) حوله نتيجة للحرية التي سلكها الإمام علي في تعامله مع أفراد جيشه وعدم تجنيدهم إجبارياً أو دفع أموال لشراء ذممهم أو تحميلهم بما لا يطيقون ، وهذا كله فعله معاوية مع جنوده ، لقد كان الأمر عند الإمام علي (ع) خالصاً كله لله ومتأسياً بالرسول (ص) في بيعتي العقبة وبيعة المدينة وبيعة الحديبية وبيعة مكة وبيعة الغدير ليعلم المسلمين الحياة الراقية ، فكما أنه لا إكراه في الدين ، فالأولى أن يكون لا إكراه في البيعة أيضاً ، وهو ما لم يفعله الطلقاء وأبناؤهم مع المسلمين ، خاصة عندما أجبروا المسلمين على سب الإمام علي (ع) ، ومن رفض كان مصيره القتل) ..

كان القائد العسكري المظفر لجيش الإمام علي (ع) هو مالك بن الأشتر وكان يقود معاركه الأخيرة مقتربا من خيمة القيادة التي بها معاوية ، فلما تسلم الأمر من الإمام علي (ع) بوقف القتال رفضه واستمر وقال لحامل الرسالة : " قل لسيدي ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيئني فيها عن موقعي ، إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني " .. رفع المعارضون في غرفة الإمام علي (ع) من تهديدهم بقتله عندما عاد الرسول ومعه رد مالك واتهموا الإمام بأنه يخدعهم بإعطاء إشارة خاصة للرسول ، فقال لهم الإمام : " أرايتموني ساررت رسولي ؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون ؟ " ..

أرسل الإمام علي رسالته الثانية إلي مالك ، أدرك مالك أن شيئاً غير طبيعي يجري في غرفة القيادة فأوقف القتال وعاد إلى غرفة القيادة ، رأي مالك المشهد عند عودته إلي غرفة القيادة حيث الطابور الخامس يحيط بالإمام علي ويتحججون بأسلوب ناعم لوقف القتال لحقن دماء المسلمين ..

ظهر أثناء عودة جيش الإمام علي (ع) أن الذين نادوا بالتحكيم نادمون على ما فعلوا وأنهم يريدون العودة للقتال مرة أخرى ، قالوا أن التحكيم كان ذنباً عظيماً ارتكبه لا يحويه إلا العودة للقتال ، فذهبوا إلى الإمام يطلبون منه ذلك ونقض وثيقة التحكيم فرفض لمخالفة ذلك لصريح القرآن بالوفاء بالعهد والمواثيق ..

قال العلامة أبو الأعلى المودودي- توفى في 1979 م- في تعليقه على أحداث صفين بالخلافة والملك (ص 82) ما يلي : " وتصرف سيدنا علي عليه السلام وما سلكه في هذه الحرب يظهر الفرق بين خليفة راشد وملك من الملوك " ..

الأشعث رأس الفتنة وقائد الطابور الخامس في جيش الإمام علي :

يقول ابن أبي حديد - توفى في عام 656 هـ - في شرح نهج البلاغة (ج 2 ص 279) عن الأشعث بن قيس ما يلي : " كل فساد كان في خلافة علي وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث ، ولولا محاقته أمير المؤمنين في معنى الحكومة (أي التحكيم) في هذه المرة لم تكن حرب النهروان ، وكان أمير المؤمنين ينهض بهم إلى معاوية ، ويملك الشام فإنه حاول أن يسلك معهم مسلك التعريض والمواربة ، وفي المثل النبوي صلوات الله على قائله: الحرب خدعة ، وذاك أنهم قالوا له :تب إلى الله مما فعلت كما تبنا ننهض معك إلى حرب أهل الشام ، فقال لهم كلمة مجملته مرسلتها قالها الأنبياء والمعصومون ، وهي قوله: أستغفر الله من كل ذنب ، فرضوا بها وعدوها إجابة لهم إلى سؤلهم ، وصفت له نياتهم ، واستخلص بها ضمائرهم ، من غير أن تتضمن تلك الكلمة اعترافاً بكفر أو ذنب " ..

قال اليعقوبي - توفي في عام 284 هـ - في تاريخه (ج 2 ص 137) عن الأشعث بن قيس ما يلي :
" قال أبو بكر في مرضه الذي توفي فيه وهو يتحسّر على أشياء لبيته لم يفعلها منها هجومه على بيت فاطمة الزهراء عليها السلام ، وأشياء لبيته لم يفعلها منها قتل الأشعث قال (:فليتني قدمت الأشعث بن قيس تضرب عنقه ، فإنه يخيل إليّ أنه لا يري شيئاً من الشر إلا أعان عليه! " ..

يقول العلامة محمد عبده - توفي في عام 1905 م - في شرحه بالمصدر المذكور سابقا عن الأشعث بن قيس ما يلي :
" كان الأشعث في أصحاب علي كعبد الله بن أبي بن سلول في أصحاب رسول الله ، كلٌّ منهما رأس النفاق في زمنه ! أسر مرتين مرة وهو كافر في بعض حروب الجاهلية وذلك أن قبيلة مراد قتلت قيساً الأشج أبا الأشعث فخرج الأشعث طالباً بثأر أبيه فخرجت كندة متساندين إلى ثلاثة ألوية على أحدها كبش بن هاني ، وعلى أحدها القشعم بن الأرقم وعلى أحدها الأشعث فأخطأوا مراداً ، ووقعوا على بني الحارث بن كعب ، فقتل كبش والقشعم ، وأسر الأشعث وفدي بثلاثة آلاف بعير ! لم يفد بها عربي قبله ولا بعده ، فمعنى قول أمير المؤمنين: فما فداك لم يمنعك من الأسر ..

وأما أسر الإسلام له ، فذلك أن بني وليعة لما ارتدوا بعد موت النبي (ص) وقاتلهم زياد بن لبيد البياضي الأنصاري لجؤوا إلى الأشعث مستنصرين به فقال: لا أنصركم حتى تملكوني ، فتوجوه كما يتوج الملك من قحطان ! فخرج معهم مرتداً يقاتل المسلمين ! وأمد أبو بكر زياداً بالمهاجرين أبي أمية ، فالتقوا بالأشعث فتحصن منهم فحاصروه أياماً ، ثم نزل إليهم على أن يؤمنوه وعشرة من أقاربه حتى يأتي أبا بكر فيرى فيه رأيه ، وفتح لهم الحصن فقتلوا كل من فيه من قوم الأشعث إلا العشرة الذين عزلهم ، وكان المقتولون ثمانمائة! ثم حملوه أسيراً مغلولاً إلى أبي بكر فعفا عنه وعمن كان معه ، وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة! ... وكان نساء قومه يسمينه: عُرْف النار ، وهو اسم للغادر عندهم ، فلم يتركه الأشعث ، وجاء إليه مستفسراً وكاشفاً عن الحال " ..

يقول د. طه حسين - توفي في عام 1973 م - في الفتنة الكبرى (ج 2 ص 89) عن قائد المعارضين الأشعث بن قيس ما يلي :
" فما استبعد أن يكون الأشعث بن قيس ، وهو ماكر أهل العراق وداهيتهم ، قد اتصل بعمر بن العاص ماكر أهل الشام وداهيتهم ، ودبروا هذا الأمر بينهم تدبيراً ، ودبروا أن يقتتل القوم فان ظهر أهل الشام فذاك ، وان خافوا الهزيمة أو أشرفوا عليها رفعا المصاحف فأوقعوا الفرقة بين أصحاب علي وجعلوا بأسهم بينهم شديدا " ..

كانت المحاولة الثانية من قبل الأشعث بن قيس ومن معه من الخوارج هي إصرارهم علي أبي موسى الأشعري ليتولي وفد التحكيم عن الإمام علي (ع) وليس عبد الله بن عباس كما أراد الإمام علي ، حاول الإمام علي إقناعهم بأن أبا موسى الأشعري يحمل ضغينة علي أهل البيت بسبب عزل الإمام له من منصبه قبل قليل من معركة الجمل من الكوفة لأنه دعي الناس إلي عدم مشاركة الإمام علي ، كما أنه لا يجاري مكر ودهاء عمرو بن العاص الذي يتولي وفد معاوية ، رفض القوم رفضاً تاماً وأصرروا علي أبي موسى الأشعري ، وقد هُزم أبو موسى الأشعري أمام يصمد أمام مكر عمرو ابن العاص..

قال ابن هلال النقفي - توفي في عام 283 هـ - في الغارات (ج 2 ص 918) والطبري - توفي في عام 310 هـ - في تاريخ الأمم والملوك (ج 3 ص 497) بالأفاظ متشابهة عن عمار ابن ياسر أنه قال لأبي موسى الأشعري في الكوفة ما يلي :
" يا أبا موسى ، لم تثبت الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح وما مثل أمير المؤمنين يخاف علي شيء ! قال : صدقت بأبي وأمي ، ولكن المستشار مؤتمن ، سمعت رسول الله يقول : " إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم من الماشي ، والماشي خير من الراكب ، فغضب عمار وساءه وقام وقال : يا أيها الذين إنما قال له خاصة : أنت فيها قاعد خير منك قائماً " ..

(ملاحظتان : الملاحظة الأولى : كان أبو موسى الأشعري بفرقة الإثنا عشر التي حاولت اغتيال النبي (ص) بطريق العودة من تبوك في عام 9 هـ .. يقول ابن أبي حديد في شرح نهج البلاغة (ج 3 ص 288) ما يلي : " وروى أنّ عمّاراً سئل عن أبي موسى فقال : لقد سمعت فيه من حذيفة قولاً عظيماً سمعته يقول : صاحب البرنس الأسود ، ثمّ كلج كلوحاً ، علمت منه أنه كان ليلة العقبة بين ذلك الرهط " .. وحينها قال النبي (ص) في الحديث الذي أورده مسلم ج 8 ص 122 : " في أصحابي اثنا عشر منافقا ، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة ، حتى يلج الجمل في سم الخياط " ..

الملاحظة الثانية : لمزيد من المعلومات في شأن محاولة اغتيال النبي (ص) في تبوك وغيرها ننوه إلي دراسة من خمس حلقات بعنوان " محاولات اغتيال النبي ، وفتنة المسلمين بالمنافقين " لكاتب الدراسة علي مدونته ..) ..

في الحلقة القادمة - إن شاء الله - سنواصل الحديث ، فإلي لقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com